الحديث ذو شجون

للدكتور زكي مبارك

أدباء مصر الجنوبية — العقاد المفقود ! — أين متحف وزارة المعارف ؟ — جريمة الكتمان في نظر الجنية الحسناء

أدباء مصر الجنوبية

مصر الجنوبية هي السودان ، وهو تعبير جميل ، ويزيده جمالاً أنه لم يصدر أول مرة إلا عن أدباء تلك البلاد

والحق أننا فرطنا في حق السودان كل التفريط من الوجهة الأدبية ، وإن لم نغفل عنه من الوجهة السياسية . ولو أننا بذلنا في خدمة السودان أدبياً معشار ما بذلنا في خدمته سياسياً لوصلنا إلى نتائج باهرة في توحيد القلوب بين من يقيمون هنا ومن يقيمون هناك ، ولكننا تركنا أمر السودان للساسة ، والساسة عندنا لا يفكرون كثيراً في الوسائل التي تجعل تعاطف سكان وادي النيل أمراً طبيعياً لا يحتاج إلى تعب أو نضال

ومن العجيب أن يفكر السودان فينا قبل أن نفكر فيه ، فهو يهتم بأخبارنا ، ويساير حياتنا الأدبية والاجتماعية والسياسية ، ويرى من الواجب أن يتعرف إلينا في كل وقت ، فأين نحن من هذه الشمائل الروائع ؟

أين الباحث الذي فكر في قضاء شهر أو شهرين في السودان لدرس ما هنالك من تطور الآداب والفنون والأذواق ؟

أين الشاعر الذي رأى من واجبه نحو وطنه أن يستلهم الوحي من منابع النيل ؟

أين المؤلف الذي خاطر بجزء من وقته وماله ليخرج كتاباً عن السودان ، وهو اليوم في يقظة أدبية تستحق التسجيل ؟

(مع عرفان الفضل للباحثين داود بركات وعبد الله حسين)

ولنفرض جدلاً أن السودان لا يرتبط بمصر من الوجهة القومية أو السياسية ، فكيف يغيب عنا أن السودان قطر أصيل في العروبة ، وأن أهله من النماذج الجميلة لأدب النفس وشرف الوجدان ، ومَن كانوا كذلك فهم جديرون بعناية الباحثين والمفكرين من كتاب وشعراء !

الفطرة السليمة لا تزال من حظ أهل السودان . ولو أن معالي الدكتور هيكل باشا كان أقام بينهم مدة أطول من المدة التي أثمرت كتابه الطريف « عشرة أيام في السودان » لظفر بمحصول نفيس في تقييد الأوابد من مكارم الأخلاق

أقول هذا صادقاً ، فما أذكر أبداً أنني رأيت ما أكره فيمن عرفت من السودانيين ، فالسوداني مفطور على طيبة القلب ، وهو يرى نكران الجميل من أفظع العيوب ، وله بوارق من الذكاء تؤهله لاحتلال الصف الأول بين رجال الفكر إذا ظفر بالتوجيه الرشيد .

فمتى نعرف واجبنا نحو أدباء مصر الجنوبية ؟

ومتى نفهم أن الأخوة لها حقوق ؟

أما بعد ، فأنا أتأهب لكتابة سلسلة من المقالات عن الأدب الحديث في السودان ، ولكن المصادر بعيدة مني ، إلا شذرات قليلة قدمها إليّ أحد أعضاء النادي السوداني بالقاهرة ، وهي شذرات لا تحقق ما أريد ، فماذا أصنع ؟

كنت أتمنى أن تتاح فرصة لزيارة السودان والوقوف على أخبار الحياة الأدبية هناك لأحدث قراء « الرسالة » في جميع الأقطار العربية عن إخوان مجهولين حفظوا عهد المروءة والإسلام في بلد جميل ، يغفل عن جماله أكثر العرب والمسلمين

كنت أتمنى أن أرى السودان ، ولو في وقدة الصيف ، لأقول لإخواني هناك : إن مصر لا تنساكم ، ولن تنساكم ، ولو ضرب بينها وبينكم ألف حجاب

« أما من تمسك بحقه من هذا السبي منكم فله بكل إنسان ست فرائض من أول شيء نصيبه . فردّا إلى الناس أبناءهم ونساءهم »

ذلكم مثل من أمثال تُبين عن خلق رسول الله ، وهو الخلق العظيم الذي أوحاه إليه القرآن ، وإنما تتجلى عظمة العظيم بالعفو حين القدرة ، والترفع عن الاقتصاص بالذنوب

وذلكم تأديب القرآن أمةَ القرآن ، وتعليم رسول الله عباد الله . وإنما يريد القرآن أن يكون المسلمون أكبر من أن يُذلّوا إذا غُلبوا ، وأعظم من أن ينتقموا إذا قدروا .

عبد الوهاب عزام

فتى أرى السودان ؟ متى ؟ متى ؟

سأسارع فأراه فى وجوه شعرائه وكتابه وخطبائه فى حدود ما أسل إليه من آثارهم الأدبية ، إلى أن يمنّ الله بزيارة أشرب فيها ماء النيل ممزوجاً بالطين ، كما شربت ماء الفرات ممزوجاً بالطين ، لأقول : إنى ذقت رحيق النيل كما ذقت رحيق الفرات . متى أشرب أول كوب من النيل وأنا بنادى المطيين فى الخرطوم ، كما شربت أول كوب من دجلة وأنا بنادى المطيين فى بغداد ؟

لن أنسى أبداً كيف ذقت ماء دجلة أول مرة ، ولن أنسى أبداً كيف رحلت إلى « الفلوجة » لأذوق ماء الفرات فى طعمه الأصيل قبل أن ترفع عنه الأقذاء

اللقاء قريب ، يا إخوانى فى السودان ، فسأتحدث عن أدبكم بعد أسابيع ، على شرط أن تذكروا أن الخطأ يغلب فى الحكم على المجهول ، وقد قضت الأقدار بأن تكون أحكامى على أدبكم منقوصة من السماع ، وهو يخطىء أكثر مما يصيب

أما وفاؤكم لمصر ، فلن يجزيكم عنه قلمى ، وإنما يجزيكم عنه من شاءت إرادته العالية أن تكونوا مضرب الأمثال فى الصدق والمروءة والإخلاص

العقاد الحقود

فى صبيحة اليوم الذى ظهر فيه مقالى عن نقد كتاب « المطالعات فى الأدب والحياة » ، طلبنى الأستاذ عباس العقاد بالتليفون وأنبأنى أن صدره انشرح لذلك المقال ، وأنه موافق على ما ورد فيه من الملاحظات ، إلا عبارة واحدة آذته أشد الإيذاء وهى العبارة التى تسجل أنه رجل « حقود » ؛ فأجبته بأنى نظرت إلى الحقد من بعض جوانبه الأخلاقية ؛ ثم وجهته توجيهاً يرتضيه رجال الأخلاق ، وأضفت نفسى إلى جملة الحاقدين لتكون سواءا فى التخلق بهذا الخلق الجميل ! مع الاعتذار لحضرة الأستاذ نجيب هاشم الذى ساءه أن يكون لى بين أهل الحقد مكان

وهل ينكر العقاد أنه رجل حقود ؟

إليكم القصة الآتية :

فى مصر شاعر « مشهور » هو الدكتور أحمد عارف الوديني المقيم بشارع العجم فى مصر الجديدة[1] ، وهو شاعر قصر شعره على الإخوانيات ، فلا يقرض الشعر إلا فى تحية صديق ، أو تهنئة زميل ، وقد تسمو به همته إلى مجاملة الأمراء والملوك فى المواسم والأعياد

لقيته مرة فى « الترو » بصحبة الأستاذ العقاد ، فسألنى عن الرأى فى شعره ، فقلت : أنت يا دكتور وديني أشعر رجل فى مصر بعد الأستاذ الجارم ! فظهرت عليه أمارات الاكتئاب ، ولكن الأستاذ العقاد تلطف فصرح بأنه أشعر من الجارم فى بعض الفنون !

ومضى الدكتور الوديني إلى الجارم بك فحدثه بما قلت وبما قال العقاد ؛ فأعلن الجارم أن الرأى ما رأى العقاد ! ثم لقينى الدكتور الوديني بعد أشهر وهو يقول :

— هل تعرف كيف ناقضك العقاد ؟

— وكيف ناقضنى العقاد ؟

— العقاد يرى أننى شاعر العرب

— أنت شاعر العرب ؟ أنت ؟

— وبشهادة العقاد !

— وكيف والعقاد يرى نفسه أمير الشعراء ؟

— هو أمير الشعراء ، وأنا إمام الشعراء ، والأمير يأتم بالإمام ، كما قال الجارم الصناج

— هذا جائز ، ولكن ما الدليل على أن العقاد يعدك شاعر العرب ؟

— كتب إلىّ خطاباً يقول فيه :

« إلى المفرد العلم ، صاحب الإنبيق والقلم ، شاعر العرب فى شارع العجم ؛ عزيزى ونور عينى ، الدكتور عارف الوديني »

— وهل ترى أن العقاد مدحك بهذا القول ؟

— تلك غاية المديح !

— وهل ترى أن العقاد صنع معك أجل مما صنعتُ ؟

— بالتأكيد !

— إسمع ، يا دكتور ، أنا جعلتك أشعر الناس فى مصر بعد الجارم ، والعقاد جعلك شاعر العرب فى شارع العجم

— وما العيب فى ذلك ؟

(١) سنعرف قيمة النص على اسم الشارع بعد لحظات

— العيبُ أنه جعلك أشعر من الأستاذ أمين الخولى ولم يزد ، والخولى جارك !

وعندئذٍ تربّد وجه الدكتور الوديني وقال : يظهر أن العقاد رجلٌ حقود !

والحق أن العقادَ حَقودٌ حقود ، وإلا فكيف جاز أن يجعل الدكتور الوديني شاعر العرب فى شارع العجم ، فقط ، مع أنه شاعر العرب بعد الجارم !

والحق أيضاً أن الخطأ لم يقع إلا منى ، فالدكتور الوديني كان استراح إلى ذلك اللقب الطريف وعدّه تلطفاً من الأستاذ العقاد ، والعقاد يلاطف أصدقاءه فى أكثر الأحايين ، ولكنه فى هذه المرة يسىء مع سبق الإصرار ؛ فقد غاظه أن تتسع آفاق الشاعرية « الودينية » بحيث يكون صاحبها أشعر الناس بعد الجارم ، والشعراء يحقد بعضهم على بعض !

وعزاء للوديني ، فلن يكون إلا شاعر العرب فى شارع العجم ، بفضل ما فى هذه العبارة الطريفة من عذوبة الطِّباق والجِناس .

أين متحف وزارة المعارف ؟

عرف قراء الرسالة خبر الخطاب الذى تلقيته وأنا فى باريس من الدكتور طه حسين ، الخطاب الذى قال فيه « أحمد الله إليك » وهى العبارة التى عدّها من المخترعات ، وصار يبدئ ويعيد بأنى تعودت الافتراء عليه ؛ ثم ظهر أن الخطاب صحيح بشهادة كاتبه الأمين « توفيق » ، وقد رجوت الدكتور طه أن يشترى منى ذلك الخطاب قبل أن أبيعه لمتحف وزارة المعارف ، ولكنه لاذ بالصمت البليغ

أتركُ الدكتور طه لشأنه ، فقلبى يحدثنى بأنه رجلٌ لا يحفظ العهد ، وأنتقل إلى الأستاذ مصطفى أمين المفتش المساعد لكبير مفتشى اللغة العربية بوزارة المعارف

عندى ذخيرة للبيع ، ذخيرة أدبية ولكن أين المشترى ؟ وأين من يعرف حاجتى إلى المال وقد شاع وذاع أنى من الأغنياء ؟

عندى كتاب لا يصلُح للاقتناء من حيث هو كتاب ، ففى مكتبتى منه نسختان ، وإنما يصلح للاقتناء حين يتبرأ منه من أُهدِىَ إليه ، وهو صديق « أمين » !

هذا الكتاب هو « تاريخ آداب اللغة العربية فى العصر العباسى » للمرحوم الشيخ احمد الاسكندرى وعليه إهداء بإمضاء المؤلف « إلى حضرة صديقه الفضال مصطفى أمين » وبتاريخ ٢٦ يناير سنة ١٩١٣

فأى أثر أعظم وأشرف من كتاب يهديه الشيخ أحمد الأسكندرى إلى صديقه الأستاذ مصطفى أمين فى مثل ذلك العهد البعيد ، يوم كان الناس يعرفون قيمة الوداد ؟ !

أين نحن من سنة ١٩١٣ ؟

وهل هان كتاب الشيخ الأسكندرى وكان من المراجع التى اعتمد عليها مؤلف « ذكرى أبى العلاء » ؟

هو كتابٌ وجدته عند أحد البقالين بمصر الجديدة وقد اشتريته بنصف درهم ، فأين من يشترى منى هدية أحمد الأسكندرى إلى مصطفى أمين ؟

وأين متحف وزارة المعارف لأقدم إليه تلك التحفة السنية ؟ أين لا أين ؟ !

جريمة الكتمان فى نظر الجنية الحسناء

لم يكن الكتمان جريمة قبل أن أُسرف على نفسى بالكلمة التى نشرتها فى « الرسالة » عن الجرائم الأدبية ، وكنت نسيت تلك الكلمة ، فلم يذكّرنى بها غير اللمام الذى عانيتُه من الجنّية التى كانت ترى أن أعلم الغيب فأعرف لأى سبب قضت أيام الصيف فى الصعيد ، الجنية الرخيمة الصوت التى تُزلزل وجودى حين تباغتنى الحديث من وراء حجاب ، الجنية التى تقرأ الأشعار والمقالات والأقاصيص وتزعم أنى أسرق أفكارها المبتكرة فى كل ما أحدث به قرائى من ألوان الجد والفتون ، والتى تهدد برفع أمرى إلى القضاء إن عدت إلى انتهاب ما تُسِرُّ إلى أذنىّ أو عينىّ من معانى وآراء[1]

من الذى يهدّد ، يا شقية ، أنا أم أنتِ ؟

ومن السارق والناهب ؟ أنا أم أنتِ ؟

أتحداك فى السر والعلانية أن تمضى خطوة واحدة فى تنفيذ ذلك التهديد ، فإن فعلتِ فسوف ترين كيف أقتلع جميع الأشجار

(١) لا أرى إعلال كلمة « معانى » فى حال الخفض ، لأنها تجر بالفتحة والفتحة لخفتها بقيت فى حال النصب فلا موجب لحذفها فى حال الخفض

والأزهار من الجيزة الفيحاء ، وكيف أصيرها أقفر من الفؤاد الذي جازه غيث الحب فأمسى وهو يَباب

ومن أنتِ حتى أسرق منكِ ؟ هل كنتِ إلا طيفاً شفافاً يحاور روحي وهو معتصم بأجواز السماء ؟ هل كنتِ إلا روحاً يتمثل في صوت رنان حنان نُقِل من وادي الخلود إلى وادي الفناء ، إن جاز القول بأنك من أهل دنيانا الفانية ؟

من أنتِ حتى أسرقُ منك ، ومن درى المسفوح على سنان القلم خُلِق روحك الظلوم ؟ أنا أسرق منكِ وما كان ذكاؤك الوهّاج إلا شرارة طارت عن فؤادي ؟ ويطيب لك أن تحتجي عني لتصح دعواك في التأبي والتمنع . فهلا نطقت بقولة الحق فاعترفت بالخوف من المصير المحتوم لمن يواجه اللهب العاصف ؟

حماك الله من روحي ، يا شقية ، وكتب لك السلامة من غزوات قلمي !

ثم تعالَيْ إلى كلمة سواء :

لقد هدّدتِ بالقطيعة الباغية إن لم أكتب « الصفحتين المزقتين من جديد ، الصفحتين المظلومتين بسبب التخوف من الأكاذيب والأراجيف

فمن يردّ عني عدوان أبناء الزمان ، إذا خرجت على شريعة الكتمان ؟

أنت يا طفلتي جاهلة جهلاء ، ولو كنت تعرفين من خلائق أهل العصر بعض ما أعرف لعز عليك أن تعدي الكتمان من الذنوب

أهل العصر ، يا طفلتي الغالية ، لا يسرهم أن يَنْبُغَ فيهم كاتب بليغ إلا أن يكون بوقة نجّاجة تهتف بما يرتاحون إليه من الإفك والرياء

الكاتب ، يا طفلتي الغالية ، قد يستبيح ما لا يباح من النقد الجريء ، وبعض أهل العصر يفهمون جيداً أن منازلهم الأدبية لم تكن إلا ضرباً من المتاع المسروق ، فهم يتصورون الناقد في شبح رجل يقدم عنهم بلاغاً للنيابة العمومية !

ومن أجل هذا يحرص قوم على إفهام الجمهور أن الرجل لا تكون له إلا شخصية واحدة ، فهو موظف فقط ، أو كاتب فقط ، وليس من حقه أن يكون موظفاً بالنهار وكاتباً بالليل ، وكيف يحق له ذلك وهو بَشرٌ مثلهم خُلِقَ للوظيفة بالنهار ، ولمنادمة السخفاء بالليل ؟ !

الكاتب ، يا طفلتي ، رجل مهدد في كل وقت ، لأنه من عنصر غريب لا يرتاح إليه المجتمع ، إلا أن يكون من أهل البراعة في خل المجتمع ؟ وذلك خلق لم أفكر فيه ولا يسرني أن أصير إليه ، لأني أمقت الفناء في أقوام كل محصولهم من الشرف أن يقال إنهم يبغضون الاستعباد ، وكنت أرجو أن يكون قرائي ملوكا يسيطرون على جميع الممالك والشعوب ، فعزة الكاتب من عزة القارئ ، ولا يستريح إلى السامع الذليل إلا المحدث الذليل

وقد أنفقت من شباب القلم ما أنفقت في خلق جيل يفهم عني ما أريد ، ثم كانت فجيعتي فيك يا شقية ، فأنت تريدين أن أخضع للجبال ، وأنا لا أعرف إلا خُيلاء السيطرة على الجمال ، والرجال قوامون على النساء ، ولو كره المتظرفون من أبناء الجيل الجديد !

وأنا مع هذا شديد الرغبة في الخضوع لإرادتك السامية ، كما يتطامن الصائد في أصول الأدغال ، فماذا تريدين أن أقول ؟ هل تريدين أن أكتب الصفحتين المزقتين من جديد ؟

أنا عند ما تريدين لتكوني بإذن الهوى عند ما أريد ؟

وإلى قلبك البكر أسوق الحديث في غير هذا الحديث

زكي مبارك

الرسالة في سنتها التاسعة

على الرغم من استمرار أزمة الورق وغلاء الطباعة وارتفاع أثمانها الى عشرة أضعاف ، يستمر الرسالة على نظام العام السابق من التخفيض والتقسيط والاغراء مع المشتركين القدماء . أما المشتركون الجدد فيؤدونه الاشتراك كاملا مقسطاً أو غير مقسط . ومن المقرر أن المشتركين القدماء لن يتمتعوا بمزايا الاشتراك المخفض الا اذا بدأوا اشتراكهم من نصف ديسمبر الى آخر يناير سنة ١٩٤١ ، ولن يجدد الاشتراك بعد ذلك .